تجليات صورة المروءة في شعر الصعاليك الجاهليين

Appearances of virility in the poetry of the pre-Islamic "Saalik"

الدكتور خلاف بوحالة*

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة (الجزائر)، مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي

bouhalakhelef@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/04/23 تاريخ القبول: 2022/05/24 تاريخ النشر: 2022/09/20

ملخص: يهدف هذا البحث بكل حيثياته إلى استجلاء مجمل صور المروءة التي تجسدت وطغت على شعر الصعاليك الجاهليين تلك الطائفة التي تمثل ركنا مهما في تاريخ الشعر العربي القديم، وذلك من خلال تحليل وشرح مجموعة من أشعارهم التي تغطيها نسمة إنسانية أخلاقية تجسد معالم المروءة العربية في شعرهم، فكم هي كثيرة تلك الآراء التي تحكم على العصر الجاهلي بصفات الطيش والتخلف والبعد عن التجمل بالصفات الأخلاقية الحسنة، لكن أكثر من ذلك آراؤهم حول طائفة الشعراء الصعاليك التي يعتبرونها مثالا عن التمرد والقسوة والنهب والبطش فقط، ناسين ذلك الجانب الأخلاقي المتستر تحت أشعار بعض منهم عاكسا معالم المروءة وصورها في أبهى صورة ممكنة.

وعليه فقد اخترنا هذه المحطة بالذات كي تسمح لنا من التغلغل وسط هذه الطائفة التي تستحق البحث والدراسة والاهتمام، وذلك وفق رؤية موضوعاتية نراها تتناسب أكثر مع عدسة بحثنا وتمكننا من معرفة مدي حضور صور المروءة وأشكالها في شعر هؤلاء الصعاليك، وأن المروءة والقيم الأخلاقية الحسنة لا ترتبط بعصر دون آخر أو دين دون آخر.

الكلمات المفتاحية: مروءة، صعاليك، عصر جاهلي.

Abstract:

This research aims in all its aspects to clarify the totality of the images of virility which embodied and submerged the poetry of the pre-Islamic "Saalik", this community which represents an important pillar in the history of ancient Arab poetry, by analyzing and explaining a group of their poems which are covered by a human and moral soul embodying the characteristics of Arab virility in their poetry, be many

opinions that governed the pre-Islamic era with the characteristics of frivolity, backwardness and being far from the embellishment with good moral qualities, but more than that, their opinions on the poets called "Saalik" by considering them just as an example of rebellion, cruelty, plunder and oppression, while forgetting this moral aspect hidden in the poems of some of them and that reflects the characteristics and images of virility in the best possible way.
Consequently, we have chosen this station in particular to allow us to penetrate into this community which deserves research, study and attention, according to a thematic vision which we judge more in adequacy with the objective of our research and allows us to know the extent of the presence of images and forms of virility in the poetry of these "Saalik", and that virility and good moral values are not linked to an era without another or a religion without others.
Keywords: virility, Saalik, pre-Islamic

.

مقدمة:

إن ما لا شك فيه أن القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية تحضر بكثرة في الشعر العربي الجاهلي بما في ذلك شعر طائفة الشعراء الصعاليك، وذلك ليس لأن بحثنا يدور حول هذه الفئة من الشعراء، وإنما لكون شعرهم ينتمي إلى الحقبة الجاهلية التي تعتبر عمومًا الأصل الأول لمختلف الطباع والسجايا العربية التي ذكرها الشعراء في أشعارهم وتفننوا في ذلك، « فالشاعر يضع القيم والمبادئ والأخلاق في مقدمة اهتمامات»[1]، وللأمانة فإن هؤلاء الصعاليك الجاهليين الشجعان لم يكونوا كلهم لصوصا وقطاع طرق غايتهم المغنم والتزود فقط، ولكن وجد فيهم من يبتغي أغراضا شريفة من مساعدة المحتاجين وإغاثة المرضى المصابين ونصرة المظلومين المضطهدين أيضا.

وعليه فإن هؤلاء الصعاليك قد اتصفوا بمجموعة من الصفات الحسنة والخلال الحميدة التي أقل ما يمكن أن نقول عنها أنها مما يعتزُّ به العربي ويفتخر، من شجاعة وصبر وكرم وإغاثة للملهوف ومساعدة المحتاجين وغيرها من الصفات الإنسانية التي تسربلت بها شخصيتهم، وجعلتها أقرب للمروءة والشهامة من صفات

النزق والغدر والجبن والخيانة وغيرها من الصفات الذميمة التي ليست من تمام الرجولة ولا من المروءة في شيء.

وقد يكون هذا السبب مقنعا –في اعتقادنا– نحو اختيار هذه الطائفة الاجتماعية المهمّشة للدراسة والبحث في ثناياها الشيقة والغامضة، فهذه الفئة تعدُّ الأكثر جاذبية للدراسة والاهتمام في المجال الإنساني والأخلاقي وحتى الاجتماعي في العصر الجاهلي، لهذا سنحاول أن نكتشف بعض الخصال والفضائل التي تعد من كمال المروءة و من طبع العربي الأبي في العصر الجاهلي، وذلك من خلال بعض الأبيات الشعرية من شعرهم، والتي قد تصحح تلك النظرة التي جاءت بها بعض الدراسات الأدبية والتاريخية القائلة بأن الشعراء الصعاليك بعيدون عن مجمل صفات النبل الأخلاقي ولا يعرفون سوى الإغارة والنهب وقطع الطريق والبطش بالأعداء !.

أولا: تعريف المروءة:

1. لغة: يقول صاحب لسان العرب في فصل الميم (مادة مرأ)، « مرأَ: المروءَة كمالُ الرُّجولية، مَرُءَ الرجلُ يمرُؤُ مروءَةً، فهو مَرِيءٌ، على وزن فعيل، وتمرَّأ على وزن تفعَّلَ: صارَ ذا مُروءَةٍ، وتمرَّأ أي تكلَّفَ المروءَةَ، وتمرّأ بنا أي طَلَبَ بإكرامنا اسم المروءةِ، وفلانٌ يتمرّأ بنا أي يطلُبُ المروءةَ بنَقصِنا أو عيبِنا والمروءَةُ الإنسانيةُ...» [2].

أما في القاموس المحيط فنجد:« مُرُءَ كَكَرُمَ، مروءةً فهو مرِئ، أي ذو مروءةٍ وإنسانيةٍ، وتمرَّأ: تَكلّفَها، أي تمرّأ بهم: طَلَبَ المروءَةَ »[3].

كما جاءت الكلمة في المنجد: « مَرُءَ – مرُوءَةً: صار ذا مروءةٍ، تمرَّأ: تكلَّفَ المروءَة، صَار ذا مروءَة يقالُ فلانٌ يتمرَّأ بنا أي يطلبُ المروءَة بنقصِنَا أو عيبنَا ... والمروءَةُ النخوةُ، كمالُ الرجولية، وقد تُقلبُ الهمزةُ واوًا وتدْغم فيقالُ " مُروَّةٌ " »[4] ، وقد أكد هذه الجزئية الصغيرة المتعلقة بالقلب إلى الواو صاحب المصباح المنير بقوله:« يُقال "مرُؤ" الإنسانُ وهو" مَرِيءٌ "، مثل قرُبَ فهو قريبٌ، أي ذو مروءةٍ، قال الجوهرَي وقد تُشدّدُ فيُقال "مرُوَّةٌ "» [5]، فالحالُ هي نفسها إذا بين الهمزة والواو حيث المروءَة أو المروَّة .

ويضيف صاحب الصحاح في مادة "مرأ" « المروءة الإنسانية »[6].

وبهذا فإن جل التعريفات تتفق في أن المروءة هي مجمل الصفات التي تدل على الإنسانية والنخوة وصفات الشهامة وغيرها من الصفات الحسنة التي تجعل الفرد كامل الرجولة.

2- اصطلاحا: يقول "الفيومي" في تعريف المروءة بأنّها:« آدابٌ نفسانيةٌ تحملُ مراعاتُها الإنسانَ على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات »[7]، إن هذا التعريف بالرغم من أنه مقتضب إلا أنه يجعل مصطلح المروءة فضفاضا في معانيه ودلالاته والصفات التي يمكن أن تندرج تحت هذا المصطلح الشامل والواسع، حيث تتجلى المروءة في مجموعة من الصفات الحسنة وليس صفة واحدة بعينها، فما كان حسنًا من الطباع والعادات الأخلاقية فذلك من المروءة وكمال الرجولية.

وقد جاء تعريف المروءة في كتاب التعريفات كالتالي:« هي قوةٌ للنفسِ مبدأ لصدور الأفعال الجميلة عنها المستتبعة للمدحِ شرعًا وعقلا وفرعًا »[8]، فبحسب هذا التعريف يمكن أن نفهم معنى المروءة أكثر لأنها كلمة لها مدلول واسع يشمل الكثير من الصفات الحسنة -كما أشرنا سابقا- لهذا يمكن اعتبارها مجموعة من الطباع والقيم الخلقية الحميدة التي يتميز بها الإنسان وتجعله في مصاف الإنسانية والرجولة الكاملة والتي تتوافق مع المنطق الشرعي والعقلي الذي يميز الإنسان عن الحيوان.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:« لا دينَ إلا بمروءة »[9]، فالمروءة من الدين وكمال الشَّخصية، ولا دين إلاّ بمروءة في قول النبي صلى الله عليه وسلم يجعل مدلول المروءة واسعًا يحتوي عدة خصال حسنة حثّ عليها الإسلام و أمر بها، كالعفة والصبر والعقل والشجاعة والغيرة وحسن الجوار والسعي من أجل الرزق وغيرها من الصفات الحسنة المتمِّمة لمعنى المروءة الكاملة.

« قال الشاعر:

وما المرءُ إلاّ حيثُ يجعلُ نفسَه ففي صالحِ الأخلاقِ نَفسَكَ فاجعَلِ

وقالوا: من أخذ من الدِّيك ثلاثة أشياءٍ، ومن الغرابِ ثلاثة أشياءٍ، تمّ بها أدبُه ومروءتُه: من أخذ من الديك سخاءة وشجاعته وغيرته، ومن الغرابِ بكوره لطلب الرّزق وشدّةِ حذرِه وسَتْرَ سِفادِه »[10]، فهذه الصفات التي وردت في القول الأخير كلها من الآداب الإنسانيةِ والخلال الحميدةِ التي تزيّن المرء وترفع منه، وتجعله شخصا راقيا، فقد عرفها البعض وجمع مختلف صفاتها الحميدة تحت ما يسمى بكمال الرجولية.

ثانيا: مظاهر صفات المروءة في شعر الصعاليك:

1. الجود والكرم: إن شعر الصعاليك حافل بنماذجَ حيةٍ لصورة الكرم عندهم، والتي تعكس شخصيات متشبعة بمبادئ أخلاقية وإنسانية عالية، حيث تلغي جزئيًا الحكم على الحقبة الجاهلية بالتخلف الفكري

وحتى الحضاري، « فكما معلوم أن لفظ الجاهلية الذي كان السَّبب في خطأ تلك الأحكام فهو لفظ ديني سياسي يعني الجهل بالدين وليس الجهل ضد العلم، إنّه لفظ أطلقه الإسلام على الحقبة السالفة عنه ... بل العكس هو الصحيح فلقد أنجبت هذه البيئة رجالا كانوا قمّة في الإنسانية، ورهافة الحس، وحسن الخلق... »[11]، والشعراء الصعاليك نجد فيهم من يجسد هذه الرؤية فمن خلال بعض أشعارهم تتضح الصورة أكثر وتعكس لنا نبلهم وكرمهم، فبالرغم من شخصيتهم الاندفاعية وتمردهم على قبائلهم وشراستهم أيضا، إلا أن فيهم من يتميز بحسٍّ مرهف ونبل اجتماعي إنساني سامي يجسد فيهم قمة المروءة العربية وفطرتها الحسنة.

يقول عروة بن الورد[12] [الطويل]:

إنِّي امـــــرؤ عافي إنائي شركـــةٌ وأنت امرؤٌ عافي إنائكَ واحـــــدُ

أتهـــــزأ منّي أن سمنتَ وأن ترى بوجهي شحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ

أقسِّمُ جسمي في جسومٍ كثيـــرةٍ وأحســـو قرَاح المـــاءِ، والمـــاءُ باردُ

لعلّ هذه الأبيات هي التي خلدت عروة بن الورد، وجعلته مثالا يضرب في الإنسانية والبذل معا، فقد جاء في الأغاني أن الخليفة "عبد الملك بن مروان" قال عندما سمع هذه الأبيات:« ما يسرّني أن أحدًا من العرب ممن ولدني لم يلدني إلاّ عروة »[13]، فهذه الأبيات لا يوجد ما أوضح منها في الدلالة والكشف عن طبيعة شخصية عروة بن الورد الباحثة عن العدل الاجتماعي، ومحاولة إنصاف الفقراء ومساعدتهم بالتضامن والتكافل معهم، وهذا كله هو انعكاس لشخصيته النبيلة ونسبه الأصيل، لأنه لا يترك فقيرا ولا صعلوكًا إلا وأعانه، وأشفق عليه، وتصدق عليه بما يملك، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على كمال رجولية الشاعر ومروءته الكاملة.

أمّا الشنفرى[14] فيقول في لاميته الشهيرة [الطويل]:

وإن مُدّت الأيدي إلى الزادِ لم أكنْ بأعجلهم، إذ أجشَعُ القومِ أعجَـــلُ

وما ذاكَ إلاّ بسطـــــةً عـن تفضُّلٍ علَيهم، وكان الأفضَل المتفضِّـــلُ

فالشاعر في هذين البيتين ينفي عن نفسه صفة الجشع والطمع ويفتخر في ذات الوقت ببسطته وتفضُّلِه على الآخرين إحسانا منه وتكرّمًا، ففي شرح اللاميتين جاء المعنى؛« كل ما ذكرت من أخلاقي وأحوالي إنّما يدفعني إليه رغبتي في الفضل وحرصي على الإحسان »[15]، وهذه من صفات الفرسان الشجعان الذين يؤثرون حب الخير للآخرين على دواتهم وأنفسهم وذلك ابتغاء الفضل والرفعة بين الناس، وكما هو معلوم أن العربي بطبعه يميل إلى حب الخير والتحلي بمكارم الأخلاق، كما أنّه يهتم أشد الاهتمام بسمعته وعلو شأنه في أوساط القوم ومجالسهم.

أما "تأبط شرا" فهو الآخر نراه يدعو إلى إنفاق المال لسد حاجياته وتغطية العوز والفقر الذي قد يلحقه إذا بخل بماله بقول[16] [الطويل]:

سدِّد خلَالَكَ من مالٍ تجمِّعُه حتّى تلاقي الذي كلُّ امرئ لاقِ

لتقرعـــنَّ عليَّ السّنَّ من ندمٍ إذا تذكَّرتِ يوماً بعض أخـلاقِي[17]

فالشاعر هنا لا يرى في المال بقاء ودوام، لهذا هو حريصٌ على إنفاقه واستغلاله في سدِّ حاجاته وحاجات الآخرين حيث يخاطب الخليلة التي تلومه على إنفاق ماله والإسراف فيه، فهو كريم وسخي حتى مع نفسه، لهذا يؤكد لها بأنها ستقرع عليه السِّن عندما تفتقده وقت الحاجة، وتتذكر بعض أخلاقه وفضائله الحسنة ككرمه وسخائه، والكرم يعتبر مما يُتباهى به عند العرب إذ يعتبر من أهم الفضائل النفسية، قال "الخليل بن أحمد الفراهيدي":« الكرم شرف الرَّجل »[18] لهذا فالكرم في العصر الجاهلي يعتبر من الواجبات الإنسانية المتعارف عليها، والمسلم بوجوبها في تلك الظروف التي كانت تحيط بطبيعة الحياة الجاهلية الصعبة والقاسية على أغلب الناس.

كما أن صورة الجود والكرم المتعلقين بالضيافة وحسن الاستقبال نجدها أوضح ما تكون عند الشعراءالصعاليك، و نخص هنا بالذكر الشاعر "عروة بن الورد" الذي كان يقري الضيف، ويحسن ضيافته والاهتمام به كذلك إذ يقول[19] في ذلك [الطويل]:

فراشي فراشُ الضيفِ والبيتُ بيتُه ولم يُلهني عنه غـــــزالٌ مقنّـعُ
أحدّثُه إن الحديث مـن القـــرى وتعلمُ نفسي أنه سوفَ يهجعُ

ففي هذين البيتين تتجسد لنا شخصية عروة الحقيقية في إكرام الضيف والاعتناء به، وتوفير له كل سُبل الراحة اللازمة لهذا نراه يجعل من فراشه فراش الضيف، لا تهمّه نفسه بقدر ما تهمه ضيافة من يطرق بابه وكيف يساعده ويقوم بأمره على أحسن وجه.

ومن يتأمل البيتين ويمعن عميقًا في معناهما العميق يلمسُ نوعًا آخر من الكلام ينضاف إلى كرم عروة المادي ألا وهو الكرم المعنوي، حيث نرى الشاعر يهتم بضيفه على أكمل صورة، بالحديث الحلو مع ضيفه كي يريحه ويجعله يهجع في غفوة من السكينة والراحة، كما أنه لا ينشغل عن ضيفه بشاغلة حتى لو كانت زوجته الجميلة التي نرى الشاعر يُكنّي عنها بالغزال المقنع.

أما "أبو خراش الهذلي"[20] وهو أحد الشعراء الصعاليك من قبيلة "هذيل" فيقول:

أردُّ شجاع البطنِ قد تعلمينَه وأوثرُ غيري من عيالِكِ بالطُّعمِ[21]

فالشاعر هنا يؤثر غيره في الطعام والتزود ليبقى هو في حاله الأولى منتشيا بطعم الجوع، والحق يقال أن هؤلاء الصعاليك يقدمون لنا أبهى صورة عن الجود والكرم مع الغير، فهم يفضلون البقاء في جوعهم بغية الاطمئنان على حال الآخرين (الرفاق) ومساعدتهم والقيام بأمرهم.

ومن قصيدة عروة الشهيرة " أقلّي على اللوم" يقول فيها[22] [الطويل]:

أقلّي علـــيّ اللّوم يا ابنة منـــــذرٍ ونامي فإن لم تشتَهي النّومَ فاسهـري
ذريـــــني ونفسِي أمّ حسَّان إنني بها قبلَ ألاّ أمـــلكَ البيـــعَ مشتـرِي

فالشاعر يأمر زوجته بأن تقلل اللوم عليه وتتركه وحاله، لأنه يريد أن يشتري ويبتغي بماله ذكرًا ومجدًا قبل أن توافيه المنية فلا يستطيع إلى ذلك سبيلا، كما أن الشاعر هنا يؤمن بأن الفرد يجب أن يبتغي حياة أخرى بماله وأفعاله، من سخاء وكرم، وسعي يضمن له ذكرا حسنا بعد موته، وما هذا إلا من كمال الرجولة وحسن مروءة هؤلاء الصعاليك الأجواد.

2. الشجاعة والإقدام: لقد افتخر الصعاليك بشجاعتهم وبسالتهم، وقوة بطشهم بالأعداء، وسرعة إقدامهم لمواجهة الصعاب والمخاطر للتغلب على مشاقها وعدم الاستسلام لها والصمود في وجهها ذلك أنهم صوّروا بعضا منها في أشعارهم وتغنوا بتلك البطولات بكل فخر واعتزاز، كيف لا والصعلوك ليس له

من ينصره سوى شجاعته وقوته، فهم يكرهون الخضوع والانقياد مهما كان، حتى أنّهم أصبحوا مثالا يُحتذى به في شدة قتالهم[23] ولون شجاعتهم التي لا توصف، فكيف لا يكونون كذلك وهم لا يورثون غير السّيف والدرع والمغفر وبقية الأسلحة التي ترمز للشجاعة والفروسية وقوة البطش وشدة الفقر أيضا.

يقول عروة بن الورد[24] [الطويل]:

وذي أملٍ يرجو تُراثي وإنّ ما يصيرُ لـــه منه غـــــدًا قليـلُ

ومالِيَ مالٌ غير درعٍ ومغفَـــرٍ وأبيضُ من ماءِ الحديدِ صقيلُ

وأسمـــرُ خطِّيّ القناةِ مثقّـفٌ وأجردُ عريانُ السراةِ طويـــلُ[25]

فأبو الصعاليك هنا لا يملك ما سيتركه لوارثيه سوى السّيف والدرع والمغفر والرمح والحصان، فكلها أدوات تستخدم في الحروب وحالات الدفاع عن النفس، فعروة يعتمد على شجاعته وقوة بأسه في مجابهة صعاب الحياة لهذا لا يورث مالا ولا ثروة ولا أرضا.

ولعل المبدأ القوي الذي آمن به جل الصّعاليك في حياتهم هو مبدأ التّسليم بحتمية الموت وفق الأجل المحدد، يقول عروة بن الورد[26] [الطويل]:

أرى أمّ حسّان الغداة تلومُني تخوّفني الأعداء والنفسُ أخوفُ

لعلّ الذي خوّفتِنا من أمامنَا يُصادفُـــــه في أهلـه المتخلِّفُ

فالشاعر هنا مع عاذلته يدافع عن موقفه بكلمات قليلة تحملُ في طياتها فلسفة عميقة تنمّ عن خبر ورؤية سديدة لمعنى الحياة، فالشاعر قد سلّم بحتمية الموت، لأن الموت يلحقُ الصّعلوك الذي يخاطر بنفسة ويُقدمُ على الأهوال، كما يلحق أيضا الصعلوك الجبان الذي يبقى بين أهله خوفا وجبنًا من الخروج للغزو والحرب والكسب أيضا، لهذا اختار عروة الخروج والمخاطرة دون الاكتراث للعواقب أو الأخطار التي قد تواجهه في طريقه فالشجاع من ركب الأهوال في سبيل تحقيق غايته وهدفه الشريف.

وها هو "عمر بن براق الهمداني" هو الآخر يسوق لنا حكمة مضمونها هو شعار الصعاليك ودستورهم الذي يمشون وفقه، حيث يقول[27] [الطويل]:

متى تجمعِ القلبَ الذّكي وصارمًا وأنفًا حميا تجتنبك المظالـــمُ

فالقلب الشجاع وعزة النفس وامتلاك السلاح هي القاعدة الثلاثية التي بنا عليها الصعلوك حياته ومنطقه في الحياة فهو يؤمن إيمانا قاطعا بأن الشجاعة والإقدام والبسالة تجنِّبه المظالم والأخطار، مما يتيح له بذلك تحقيق هدفه وغايته يقول أيضا[28]: [بالطويل].

ومن يطلبِ المالَ الممنّع بالقنا يعشْ ذا غِنى أو تخترِمه المخَارمُ

وكنتُ إذا قومٌ غزوني غزوتُهم فهل أنا في ذا يال همدانَ ظالمُ

فلا صُلحَ حتى تعثُر الخيلُ بالقنا وتَضربَ بالبيض الدّقاقِ الجَماجِمُ

فليس أدل على شجاعة ابن براق واعتزازه بإقدامه وشجاعته من هذه الأبيات التي بين أيدينا، فبهذه الأبيات يكون الشاعر قد جمع لنا فيها صفات الفارس النموذجية التي يعتز بها العربي في العصر الجاهلي، من كرامة وشجاعة وسلاح ضارب، لتحقيق الحرية والمجد وكسب المال الوفير، ومن هذا المنطلق « فالفروسيةُ والشجاعةُ من القضايا الرئيسية في المجتمع الجاهلي ذلك المجتمع الذي يقوم على القوة، وابن براقة من فرسان قوم همدان، وإذا كان القدماء قد عرفوا صفة الفروسية في ابن برق فإننا – من خلال ما وصل إلينا من شعره، ومن أقوال مترجمة– نرى أن الفروسية هي مفتاح لشخصية هذا الرجل »[29].

وقد رُوي في كتب الأدب أنه عند مقتل الشنفرى انبرى صديقه ورفيق دربه الشاعر تأبط شرا بقصيدة يرثيه فيها ويذكُر شجاعته وبطولته بقوله[30]:

على الشّنفرى ساري الغمامُ فرائحٌ عزيزُ الكُلى أو صيِّبُ الماءِ باكرُ[31]

عليكَ جداءٌ مثلَ يومِكَ بالحيا وقد رعفَتْ متّي السُّيوفُ البواتِرُ[32]

ويومكَ يومُ العيكتَينِ وعطفَةٌ عطَفتَ وقد مسّ القلوبَ الحناجرُ[33]

تُجتلُّ سلاحَ الموت فيهم كأنّهم لشوكتِكَ الحدَّى ضئينٌ نوافرُ

وطعنةِ خلسٍ قد طعنتَ مرشّةٍ لها نفذٌ تضِلُّ فيها المسَابرُ[34]

ففي هذه الأبيات يذكرنا الشاعر بشجاعة صديقة الفذة وثبات جنانه، حيث يجعله هذا مهابًا من طرف أعدائه، وقوله "مس القلوب الحناجر" إشارة إلى أن قلوب الخصوم قد امتلأت خوفا ورعبًا منه، فسيفه بتّار

وطعنته خادعة سريعة وهجمته فذة قوية تهول القلوب وتفزعا ...الخ، وهذا كلّه من مظاهر شجاعة الشاعر (الشنفرى) وقوته وبطولته التي لا تُوصف.

3. العفة وعزة النفس: في العصر الجاهلي كانت حياة الصعاليك تتخبط في بيئة قاحلة مجدبة قليلة الضرع شحيحة النبع والنبت أيضا، حيث جعل هذا الواقع الفرد أمام حتمية التنقُّل والبحث باستمرار عن الرزق وشروط الحياة التي تسهّل عليه العيش والتأقلم مع ظروف البيئة القاسية، وهذا الظرف لا يخص حياة الصعاليك فقط بل ينطبق على سكان القبائل التي ينتمون إليها، « فمن طول ما كان يحدث لهم من ذلك سموا الجذب سنة فيقولون: أصابتنا سنة قضت على الأخضر واليابس، من أجل ذلك كثرت عندهم الرحلة في طلب العيش والكلأ، فترحل القبيلة بإبلها وأغنامها إلى مراعٍ جديدة »[35]، وإذا كان سلاح القبيلةِ هو التنقُّلُ والبحث الدائمُ عن مناطقِ الخصبِ والوفرة، فإن الصّعلوك قد استعاض عن هذا الحرمان والفقر بغنى النفس وإبائها وترفعها عن الذل ورفضها للضيم، لا يقبلُ مذلةً من أحد ولا ينحني أبدًا، عزيز النفسِ يذهب حيث يشاء مفتخرا بعزة نفسه وكبريائه غير خاضع لأي سلطان مهما كان، يقول الشنفرى[36] معبرا عن اندفاعه بحثا عن هذا العالم:

وفي الأرضِ منأى للكريمِ عــن الأذى وفيهَا لمــن خافَ القلى متعــزلُ

لعمركَ ما في الأرضِ ضيقٌ على امرئٍ ســرى راغبًا أو راهبًا وهو يعقــلُ

فالشاعر هنا كالطائر حرًا يرى في الوجودِ فسحة الأملِ، يسرحُ فيه ويلجأ إليه نُفورًا من الضّيم والأذى الذي قد يلحقُه من غيره ممن يُنتظَر منهم الإيذاء أو الظلم، وحكمة هذين البيتين أنّ الرجلَ الكريم النّفس يستطيعُ أن يتجنّبَ الذلّ والهوان بهجرته وترفعه وبالابتعاد عن محيطه الذي يسكنه إلى موضع آخر من بقاع الأرض فيه الكرامة والعزة محفوظتين. وأمّا "الشنفرى" فيؤكد لنا بأنه لولا مخافة لحاق العار والذل به لحصل على كل ما يحتاجه من مأكل ومشرب دون أي عناء فيقول[37] [الطويل]:

ولولا اجتنابُ الذّام لم يُلفَ مشربٌ يُعاشُ به إلاّ لــديّ ومأكــلُ

ولكــنّ نفسًا حــرّةً لا تُقيمُ بي عــلى الذّامِ إلاّ ريثما أتحــوّلُ

فالشاعر هنا يؤكد لنا بأن نفسيته لا تقبَلُ تحمل المذلة والهوان قط، فهو أبي كريمٌ عفيفُ النفس عن التدلل والتوسل، فلا تطاوعه نفسه لقبول الضيم والعيش بخضوع تحت وطأة الآخرين، فلهذا نراه في أول القصيدة

-كما أشرنا سابقا- قرّر الرحيل عن الديار ضاربًا في الأرض بعيدا عن قيود المجتمع الظالم ورؤية الشاعر هذه إنما هي ثمرة من ثمار قوة شخصيتهم وكمال مروءتهم وحبهم للحرية التي عشقوها وبحثوا عنها طويلا خارج مجتمعاتهم.وأمّا الشاعر أبو خراش فنراه يحدّث حليلته "أم الأديبر" ويذكرها بخصاله الحميدة من عفة النفس وقوة الصبر عن الجوع بذل المذلة والخضوع حيث يقول[38]:

وإنّي لأثوي الجوع حتّي يملّني فيذهبُ لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبقُ المـــاء القارح فأنتـهي إذا الـزّاد أمسى للمـزلّج ذا طُعـمِ[39]
أردُّ شجاعَ البـطنِ قد تعلمينَـهُ وأوثر غيري مـــن عيالك بالطعـــمِ
مخـافةَ أن أحيا برغـمٍ وذلّـــةٍ وللمـــوتِ خيرٌ من حياةٍ على رغْـمِ

فهذه الأبيات إنما جمعت فيها من مكارم الأخلاق ما يشير حقيقةً إلى شخصية هؤلاء الصعاليك القوية وعفتهم وترفعهم عن الخلال الدنيّة التي تطعنُ في كبريائهم وعزتهم، فالشاعر يفتخر بأنه عفيفُ المأكل والمشرب، صابرٌ عن الجوع والفقرِ، يؤثر غيره بالطعام وقت الحاجة، فهو يرى بأن الموت أفضل من الحياة على رغمٍ ومذلةٍ وهوان.

ونجد الكثير من المعاني التي تشير إلى عفة هؤلاء الصعاليك وكبريائهم وعنفوانهم أيضا، وذلك من خلال دعواتهم المتواصلة نحو رفض الذّل والهوان والاعتماد على مساعدات الناس ورحمتهم بالبقاء أمام فنائهم وأدبار بيوتهم فهذا الشاعرة عروة نجده يدعو في كل مرة إلى العيش الكريم ورفض كل ما يذلّ ويهين صاحبه بقوله[40]:

إذا آذاك مـــالكُ فامتهنـهُ لجاديةَ وإن قـرعَ المـــراحُ
وإن أخنَى عليك، فلم تجده فنبتُ الأرضِ والماءُ القراحُ
فرغمُ العيشِ إلفُ فناء قومٍ وإن آسوك والمـوتُ الرّواحُ

فالشاعر عروة في كل مرّة يدعو إلى فلسفته الواضحة، بالاعتماد على النّفس ورفض الذّل وكل ما من شأنه أن يذلَّ وينقصَ من كرامة المرء مهما كان، والإنسان الذي يعيشُ مرغما هو من يعتاد ويقصد فناء النّاس حتى وإن وجد عزاء وإعانة منهم، والإنسان العفيف الكريم الأنف يجد في الطبيعة -ولاشك- الملاذ

.

الحقيقي والملجأ الطبيعي للنفس الأبية لأنه في الأخير تبقى هذه رؤية الشاعر عروة وقناعته، فعزة النفس ورفض الذل كمبدأ وقيمة في الحياة يتجسّد فقط عند أصحاب النفوس القوية مثل عروة بالذات، فهو يعتبر مثالا حيًا للفارس البطل بسجاياه الرفيعة وأخلاقه النبيلة وشخصيته التواقة إلى الحرية دائما، « فمن دواعي السرور أننا لا نحتاج إلى جدل كي نثبت بأنّ كرامة الإنسان إنما تعود إلى امتلاكه للحرية ... فما قدر يمتلكه إنّما يكمن في قدرة الفرد على أن يختار لنفسه »[41]، وهذا الشاعر الذي نتحدث عنه هو دائم الدعوة إلى الخروج والبحث عن الحرية وعن الحياة الكريمة، مختارا لنفسه رؤية منفتحة على العالم والوجود الخارجي أجمع، فقوله في كل مرة "ذريني ونفسي" "دعيني أسعى"، "أقلّي علي اللّوم" ...الخ، كل هذه الصّيغ التي استخدمها الشاعر تدلّ على قوة الشخصية المحبة للحرية والرافضة للقيود الاجتماعية والمترفعة عن الذل والهوان أيضا.

4. نصرة الرفيق: ونجد تضامن هؤلاء الفتيان فيما بينهم في تعاونهم الدائم في حل أمورهم وأشغالهم بتوزيع الأدوار والمهام على أفراد المجموعة كل بمهمته التي يكلّف بها، وقد كانوا حتى في أمور النفقة يكلفون فردا من المجموعة يسيّر أمور النفقة والغنيمة لتكون بذلك القسمة عادلة ومرضية للجميع، فالشنفرى نجده يذكر لنا كيف كانوا يقتسمون القوت وقت الضيق والشّدة وقلة الطّعام بقوله[42]:

وأمّ عيالٍ، قد شهدتُ تقوتُهـــــم إذا أطعمتهـــــم أوتحتْ وأقلـــّتِ[43]

تخــافُ علينَا العيل إن هي أكثرت ونحـــــن جيـــــاعٌ أيَّ آل تألّـــتِ

فالشاعر هنا يذكر لنا كيف أن "تأبط شر" وهو المكنى هنا بـ"أم عيال" قد أوكلت له مهمة توزيع الطعام على رفاقه حيث وصف الشاعر الوضع بأن صديقه كان يقتّر عليهم الطعام مخافة أن تطول بهم الرحلة أو الغزوة فينفذ بذلك منهم الزاد فيشق عليهم الاستمرار دون طعام، وهذا التصرف إنما من خوف الشاعر على رفاقه وقلقه عليهم إن بقوا دون زاد وطعام يعينهم في خرجتهم ورحلتهم.

أمّا الشاعر "عروة بن الورد" المكنّى بأبي الصعاليك فإنه يجعل رفاقه عياله الذي ينتمي إليهم ولا يتخلى عنهم أبدا مهما طال الحال وشقّ، فهو متشبّث برفاقه وأصحابه في الشدّة والرخاء ولا يمكن أن يتخيل نفسه بعيدا عنهم غير مساند لهم وغير ناصر لهم، فهو يشبه لنا علاقته بهم بتعلّق الظمآن بشربة الماء حيث يقول[44]:

فلا أترُكُ الإخوانَ ما عشْتُ للرّدى كما أنّه لا يتركُ الماءَ شاربُـــه

فعروة في هذا البيت نراه يقوي الرابطة التي تربطه برفاقه، حيث يعلن بأنهم إخوانه، فهو لا يدعوهم برفاقه أو أصدقائه وإنما إخوانه مما يجعل بذلك أمر نصرتهم ومساعدتهم من حقوقهم عليه، فكما روي في الأغاني:« كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض الكبير والضعيف وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون النّاس من عشيرته في الشدّة ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسهم ومن قوي منهم إما مريضًا يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته خرج به معه فأغار وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبا حتى إذا أخصب النّاس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهل وقسم له نصيبه من غنيمة حتى إذا كانوا أغنموها فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى فلذلك سُمي عروة الصّعاليك »[45]، فهذا هو حال عروة بن الورد مع الناس كلّهم فكيف يكون مع رفاقه الذين يغزون معه ويدعوهم بعياله.

وهاهو مرة يصوّر لنا حاله مع " أصحاب الكنيف" الذين أساءوا إليه بعدما قام بحالهم وتصدق عليهم مما غنم إذ يقول[46]:

فإنّي وإيّاكم كذي الأم أرهنت له ماء عينيها، تفدي وتحملُ

فالشاعر هنا يشبه لنا قيامه بأمر رفاقه ونصرتهم بما تقدمه الأم لولدها، حيث تعطيه كل ما يحتاجه ويدعمه فهذه ولاشك هي صورة جميلة تدعم الحجة بأن عروة يدعم رفاقه وينصرهم دائما، والأمر ليس غريبًا ما كان يتعلق دائما بعروة الصعاليك كما يسمونه، لأنه معروف بإنسانيته وكمال مروءته ولا معنى للفرد دون جماعة حتى ولو كان غنيا حسبه.

أما أبو خراش[47] بعدما نهشته الأفعى حين أقبل على مساعدة رفاقه فيقول :

لعمركَ والمنايـــا غـــالباتٌ على الإنسانِ تطلعُ كلَّ نجـــــدِ

لقد أهلكتْ حية بطـــن أنف على الأصحاب ساقًا ذات فقـــدِ

فهنا نجد بأن الشاعر وهو يعاني مصارعا نهشة الأفعى لساقه يذكر فضل ساقه التي كانت دائما في خدمته وخدمة رفاقه، حيث يفتقدونها ولاشك في غزواتهم وغاراتهم، وهذا الموقف يؤكد لنا تعاون وتضامن هؤلاء الصعاليك وتشابك خليتهم، وقيامهم بنصرة بعضهم والدفاع الدائم عن هذا التّلاحم الموجود بينهم لأنهم في الأخير يشكلون عائلة واحدة مادام المجتمع الأصلي لهم لم يعد في حاجة إليهم.

خاتمة:

لقد درس هذا البحث شعر الصعاليك الجاهليين من منظور إنساني أخلاقي يتناسب مع هذه الطائفة الجاهلية التي شكلت ومازالت تشكل ركنًا مهمًا في تاريخ الشعر العربي القديم، لهذا كانت وقفتنا مع قطوف من شعرهم محاولين كشف صور تجلي مظاهر المروءة في شعر هؤلاء، فهذه الطائفة من الشعراء قد مثَّلت جديدا في زمانها وقد انعكس هذا على جملتهم الشعرية حيث نلحظ بصورة جلية تلك الصفات والخلال الحسنة التي تعتبر من تمام المروءة في العصر الجاهلي، كالشجاعة والجود والمكرم والصبر على الصعاب ونصرة الرفيق وغيرها من الصفات التي زادت هؤلاء الشعراء رجولة وشهامة.

كما أن الشعراء الصعاليك بالرغم من تمردهم وخروجهم عن مجتمعاتهم القبيلة بحثا عن الحرية والكرامة ولقمة العيش، لم يتجردوا من مختلف الصّفات الحميدة التي جعلت من بعضهم مثالا في الكرم والجود والشجاعة والبذل في سبيل الآخرين، وغيرها من صفات المروءة العربية التي نشدها العربي الأصيل والأشعار التي أتينا بها في ثنايا هذا البحث ما هي إلا دليلٌ قاطع على تمسك هؤلاء الصعاليك بمرجعات فطرة الذات العربية ونزوعها نحو صفات المروءة والإنسانية.

ولهذا فتلك الصفات الحسنة المكونة لشخصية الصعلوك في العصر الجاهلي ما هي إلا شكل من أشكال الوعي الإنساني في ذلك العصر، وشعر هؤلاء الصعاليك يبقى إحدى اللوحات الفنية الراقية التي تصور ذلك الجانب الإيجابي من حياة العربي في ذلك العصر من سماحة، وكرم، وشجاعة، وعفة، وغيرها من الصفات التي تدل أصالة العربي وطينته التي تعتبر إلى وقتنا الحاضر مرجعا مهما في رسم معالم المروءة وجميع القيم الخلقية والإنسانية الراقية.

الهوامش والإحالات:

1حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي. قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار، القاهرة، ط01، 2001م، ص:37.

ابن منظور: تح: عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، ط01، (د/ت)، ص: 2.4166.4165

. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج01، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط03، 1979م، ص: 28 3

4 لويس معلوف اليسوعي: المنجد، المطبة الكاثوليكية، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص: 754.

5 أحمد بن محمد بن علي المغري الفيومي: المصباح المنير، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط07، 1928م، ص: 569.

6 إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، مج01، دار العلم للملايين، القاهرة، ط04، 1990م، ص: 72.

7 أحمد بن محمد بن علي المغري الفيومي: المصباح المنير، ص: 569.

8 علي بن محمد الشريف الجرجاني: التعريفات، تح: صدِّيق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د/ط)، (د/ت)، ص: 176.

9 ابن عبد ربه: العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيني، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 1983م، ص: 150.
10 المرجع نفسه، ص: 151.
11 صالح مفقودة: القيم الأخلاقية من خلال الشعر الجاهلي، مجلة العلوم الإنسانية، ع01، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2001م، ص: 184.
12 عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، (د/ت)، ص: 61.
13 أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج02، تح: أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم، مصر، ط01، (د/ت)، ص: 184.
14 الشنفرى: الديوان، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط02، 1996م، ص: 60.59.
15 الشنفرى والطغرائي: اللاميتان، تح: عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، (د/ط)، (د/ت)، ص: 30.
16 تأبّط شرا: الديوان، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط01، 2003م، ص: 43.
17 لتقرعنّ على السّنّ: أي لتصكنها ندما وحسرة.
18 الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السّمرائي، ج05، دار الهلال، القاهرة، (د/ط)، (د/ت، ص: 36.
19 ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، خزانة الكتب العربية، الجزائر، ط01، (د/ت)، ص: 155.
20 أحمد الزين: ديوان الهذليين، ج02، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط02، 1995م، ص: 128.
21 شجاع البطن: أراد من شدة الجوع.
22 ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص: 63.
23 أبو الحسن بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج03، المكتبة المصرية، بيروت، ط01، 2005م، ص: 126.
24 ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص: 207.
25 السراة: الظهر.
26 عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص: 87.
27 أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص: 28.114 المصدر نفسه، ص: 114.
29 شريف راغب علاونة: عمر بن براق سيرته وشعره، دار المناهج، عمان، ط01، 2005م، ص: 25.
30 تأبط شرا: الديوان، تح: عبد الرحمن المصطاوي، ص: 27.
31 الكُلى: أطراف الشيء وجوانبه.
32 جداء: النفع والعطاء؛ رعفت: قطرت دما.
33 العيكتان: اسم لموضع معروف.
34 المسابر، جمع مسبر، وهو ما يقاس به جرح العمق.
35 شوقي ضيف: الأدب الجاهلي– العصر الجاهلي–، ج01، دار المعارف، القاهرة، ط24، (د/ت)، ص: 21.
36 الشنفرى: الديوان، ص: 58.
37 الشنفرى: الديوان، ص: 63.
38 أحمد الزين: ديوان الهذليين، ج01، ص: 128.127.
39 المزلّج: عيش مزّلج، إذا كان فيه بعض النّقص، وأيضا عند الرجال الذي ليس بالتام.

[40] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أو بكر محمد، ص: 53.

[41] رالف بارتون بري: إنسانية الإنسان، تر: سلمى الخضرا الجيوشي، مكتبة المعارف، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص: 49.

[42] الشنفرى: الديوان، ص: 35.

[43] أم عيال وهو تأبط شرا.

[44] ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد، ص: 153.

[45] الأصفهاني: ج02،ص: 186.

[46] عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، ص: 92.

[47] الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص:

المراجع:

1) الفيروز آبادي:القاموس المحيط، ج01، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط03، 1979م.

2) ابن السكيت: شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، خزانة الكتب العربية، الجزائر، ط01، (د/ت).

3) ابن عبد ربه: العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيني، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 1983م.

4) ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، ط01، (د/ت). أبو الحسن بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج03، المكتبة المصرية، بيروت، ط01، 2005م.

5) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج02، تح: أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم، مصر، ط01، (د/ت).

6) أحمد الزين: ديوان الهذليين، ج02، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط02، 1995م.

7) أحمد بن محمد بن علي المغري الفيومي: المصباح المنير، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط07، 1928م.

8) إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، مج01، دار العلم للملايين، القاهرة، ط04، 1990م.

9) تأبّط شرا: الديوان، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط01، 2003م.

10) حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي. قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار، القاهرة، ط01، 2001م.

11) الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السّمرائي، ج05، دار الهلال، القاهرة، (د/ط)، (د/ت).

12) رالف بارتون بري: إنسانية الإنسان، تر: سلمى الخضرا الجيوشي، مكتبة المعارف، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

13) شريف راغب علاونة: عمر بن براق سيرته وشعره، دار المناهج، عمان، ط01، 2005م.

14) لشنفرى والطغرائي: اللاميتان، تح: عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، (د/ط)، (د/ت).

15) الشنفرى: الديوان، تح: ايميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط02، 1996م.

16) شوقي ضيف: الأدب الجاهلي– العصر الجاهلي–، ج01، دار المعارف، القاهرة، ط24، (د/ت).

17) عروة بن الورد: الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، (د/ت).

18) علي بن محمد الشريف الجرجاني: التعريفات، تح: صدِّيق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د/ط)، (د/ت).

19) لويس معلوف اليسوعي، المنجد، المطبة الكاثوليكية، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

المجلات والدوريات:

1) صالح مفقودة: القيم الأخلاقية من خلال الشعر الجاهلي، مجلة العلوم الإنسانية، ع01، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2001م.